

بسم الله الرحمن الرحيم

تطور الموسيقى التونسية وعلاقتها بوسائل الإتصال الحديثة

ان أقدم وثيقة تونسية تناولت موضوع التطور الموسيقى تلك التي أوردتها أستاذنا المؤرخ حسن الموسيقى تلك التي أوردتها أستاذنا المؤرخ المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في كتابه "الورقات" عن كتاب "متعة السماع للقاضي أحمد بن يوسف شرف الدين التيفاشي المولود سنة 580 هـ، 1184م، بقرية تيفاش القريبة من مدينة قفصة .. يقول التيفاشي .. لقد حضرت بافريقيا، أوائل القرن السابع جارية مغنية في مجلس عظيم من عظماء تونس تغني ما بدايته :

" تشكي الكتيب الجريا لما شاهدته "فمر عليها في غناء البيت الواحد مقدار ساعتين من الزمن وهذا يدل على المقدرة الفائقة لهذه المغينة على التصرف والارتجال وقد فاقت بذلك مقدرة المرحومة أم كلثوم التي أتت بعدها بأكثر من سبعة قرون .

وكان أبرز حدث في القرن الثامن عشر ،عناية الملك محمد الرشيد باي (1122-

1173هـ/1710-1759م) ثالث ملوك العائلة الحسنية بالموسيقى والغناء، الذين أتى بهما

اللاجؤون الأندلسيون، حيث كان أديبا وفنانا ميالا إلى الأناست والطرب .

وهو الذي يرجع اليه ترتيب النوبة التونسية على الطريقة المستعملة حتى الآن، وفي

عهده ألقت القطع الموسيقية التي جعلت فواصل بين أجزاء النوبة وكذلك أغلب المصادر والتوشيات .

وهو الذي عمل على تطعيم الموسيقى التونسية بالموسيقى التركية من حيث مقاماتها واقاعاتها وحتى عض تركيبها مثل البشرف والسماعي التي ألقت في مقامات وفي أسلوب تونسيين رغم الشكل تركيا .

وقد اشترك في تأليفها مع ثلة من فناني عصره وأبرز فيها التجديد ففي بشرف المزموم نوع الايقاع بكل خانة من خانته وخو ما لم يوجد في أي بشرف آخر وكذلك في بشرف النواصي الذي جعل الجزء الأول من خانته الأخيرة على ايقاع حر الشيء الذي لم يبرز في الموسيقى العربية حتى الآن، وأما في الموسيقى الغربية فم يظهر الا في أوائل الربع الأول من هذا القرن .

وانشأ محمد الرشيد في قصر ه مدرسة للموسيقى يتفقد أعمالها مساء كل يوم ثلاثاء

استمرت بعده الى عهد الملك محمد الحبيب باي المتوفى سنة 1929 واقتصرت في عهد الملك أحمد باي الثاني الذي تولى بعده على تقديم حفل مساء كل يوم ثلاثاء يشارك فيه أغلب الفنانين والفنانات التونسيين .

وحرص محمد الرشيد باي الطرق الصوفية على تنظيم دورس لغناء المالوف، برزت منها الطريقة العزوزية في زاويتها بالنهج المسمى باسم شيخها سيدي على عزوز بتونس العاصمة، تألق فهي أستاذ كبير ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر وهو الحاج محمد المملوك المتوفي سنة 1932، الذي لحن عدة قطع للنوبات التونسية منها بالخصوص بطايحيان من نوبة الذيب تأليف ابراهيم ابن سهل الاشبيلي وهما :

ليل الهوى يقضان / والنج ترب السهر

و:

ليلي السعود / ترى هل تعود

وقد أدركت من تلاميذه شيخ المالوف بطبرية عندما عينت بها حاكم ناحية سنة 1956 وهو الشيخان عثمان قواو الذي كان يزورني يوميا ويغني لي من محفوظاته وبالخصوص البطايحيان المذكوران، كما أدركت من تلاميذه شيخ المالوف بالكاف الاستاذ الصحبي المسراطي سنة 1960 وكان سنة آنذاك 109 أعوام، ولم يقبل الحديث معي الا بعد اختباري في حفظ الموشحين المذكورين .

وأنتج مع ذلك محمد الرشيد باي وجماعته عدة موشحات وازجال واشغال على ايقاعات مجلوبة من تركيا مثل : "من يوم العشاق" في مقام الحسين ووزن النوخت، و"خذوا بيدي" من نفس المقام ووزن السماعي الثقيل، و"منه الذي فارق حبيبه وعاش في وزن الاقساق وكذلك" الى كم ذا ياغزال " وهو الموشح الوحيد الملحن على وزني الاقساق والنوخت .

ومن أبرز الوجوه الذين ساهموا في تطوير الموسيقى التونسية الشيخ أحمد الوافي (1850- 1921م) الذي كان يلقي دروسا يومية بناديه بنهج القنطرة بالحلفاوين في الغناء والمقامات والإيقاعات ويلقن به انتاجه الطريف الممتاز المجدد فهو أول من لحن على مقام "الشاهيناز" وسماه "انقلاب الأصبعين" نذكر منه : لا زال دهرك سعيد" تأليف الصفي الحلي ، "وهجرتي يا خي" والموشح "يالي قومي ضيعوني" للأديب الصفاقسي الشيخ علي الغراب على وزن النوخت .

كما جارى الموسيقار المصري محمد عثمان في بداية الغناء من الوقت الثالث من وزن السماعي في موشحه المشهور "ملا الكسات وسقاني" فلحن الشيخ الوافي موشحه "أطلت الهجر يا بدري" مبتدأ من الوقت الرابع من نفس الوزن، وزاد عليه ادخال وزن المجرى الخماسي في آخره. كما جاره في ادخال التصرف الذي كان مرتجلا على موشحه الاصبغين "قاضي العشق" قد كواني الصدود .

يأتي بعده من المجددين البارزين أستاذنا الشيخ خميس ترنان (1894-1964م)، الذي له مكانة مرموقة في تطوير الموسيقى التونسية حيث كان أول من ألف الشرف وقد صاغه على ايقاع الشمبر، ذي 24 وحدة زمنية وطور مقام المزموم في موشحه الذي ألفه الشيخ أحمد خير الدين "طاف بأصبهاء بدري" وذلك برفع الدرجة الثانية من سلمه، والتوقف على الدرجة الثالثة منه، وفي أغنيته التي ألفها المرحوم الهادي خريف "لو كان النار اللي كواتني كواتك" التي ركز فيها مقام الابعين على مقر الزموم لأول مرة وهو أول من لحن على مقام العجمي عشيران موشحا من تأليف أبي الحسن المريني، "في نغمة العود والسلافة"، وقصيда لشيخ الأديباء محمد العربي الكبادي "قف بالمنازل وانشق طيب رياها"، وهو أول من لحن في مقام العراق التونسي أغنية "ليعتني بشد الهوى يا دوجة"، وأول من لحن في مقام البوستانكار، أغنية "أنت ياللي بعيد عليا علاش خيالك بيتع فيا" للشارع المرحوم محمود بورقيبة، وأول من لحن نوبة مالوف كاملة أنجزها بمناسبة الذكرى الأولى للاستقلال سنة 1957، وقد كل لي شرف تأليف جميع معزفاتها وابتكر رحمه الله وزنا جديدا سماه الرنان ذا ثلاث عشرة وحدة زمنية لحن عليها موشحه "بالهوى قلبي تعلق في مقام الحسين وللشيخ الترنان مجموع طيبة من الموشح والقصائد والأغاني لها مكانة مرموقة في عالم الفن، جديرة بأن تكون شواهد على أصالتنا الفنية وعلى الابتكار المركز. واشترك عند تأسيس الجمعية الراشدية كل من الاستاذين الشاذلي مفتاح ومحمد التريكي في انتاج مجموعة من السماعيات على مقامات تونسية لا تخلو من الطرافة والابتكار، وانفرد الاستاذ التريكي بانتاج مجموعة من الاغاني امتازت منها بالخصوص أغنية الاستاذ محمود بورقيبة التي قدمها للرشيدية سنة 1935، واستعمل الاستاذ التريكي في تلحينها وزن السماعي ثقيل لأول مرة في الاغاني وهي "زعمة يصافي الدهر" وله أغنية اخرى لنفس الشاعر "افهمني وافتح وذنيك" لحنها على وزن اقصاص لأول مرة أيضا.

ويأتي بعد هؤلاء الفنانين الاستاذ الهادي الجويني الذي له مجموعة من الموشحات على النمط الشرقي، مع دور مصري وعدد من السماعيات ومجموعة هامة من الأغاني الخفيفة لحن أغلبها في مقام الكردي وأداها على أسلوب الفلامينكو الأندلسي الاسباني، يتغنى بها الجمهور الى الآن.

وقام الاستاذ علي الرياحي بانتاج عدد كبير من الاغاني ارتكز تطورها على دمج المقامات التونسية والشرقية في جملة الواحدة وهي محبوبة يتداولها الجمهور العريض الى الآن وسلك سبيله الاستاذ محمد الجموسي الذي تبث أغانيه وهي مطلوبة ومحبوبة الى الآن، لا تخلو من الطرافة خاصة عندما يؤديها بصوته الرخيم

ويحمد الله اتبعنا مسية الشيخ باننتاج غزير يشتمل على اربع نوبات وسبعة بشارف، و

23 سماعيا، و34 موشحا وثلاث لنقات وعدد كبير من الأناشيد والقصائد والأغاني الممتازة

والخفيفة والشعبية، يشتمل أغلبها على مقامات أو إيقاعات أو تراكيب لا تخلو من ابتكار نيقى لابنائنا القيام بدراستها ونقدها وقد صدر أغلبها في كتاب هام نشر هذا العام بمدينة حلب بالشام.

العلاقة بوسائل الإتصال

لقد بدأت هذه العلاقة في أواخر القرن التاسع عشر بالتسجيل على أبكار من الشمع كانت تعبر ايجابية إلى أبعد الحدود من الناحية الفنية والوثائقية وأملك تسجيلا من هذا القبيل عمره أكثر من قرن يبين الحياة والغناء في الجزيرة العربية .

ثم تطور التسجيل ليعتمد الإسطوانة التي ترقّت بدورها من ثمانية وسبعين دائرة إلى الثلاثة والثلاثين وحفظ لنا هذا التطور أعمال ابرز المغنين والموسيقيين والزعماء والممثلين والمحاضرين .

جاءت بعد ذلك الإذاعة التي أصبحت تدخل البيوت والمقاهي والنوادي والآذان بدون استئذان وبذلك ساهمت في سعادة الإنسان بتمتعه بالإستماع الى كتبه المساوية مرتلة أحسن ترتيل وإلى الألحان الشجية بأحسن الاصوات وإلى المحاضرات الفنية والأدبية والعليمة ثم تطور التسجيل بانتقاله الى أشرطة على اختلاف أنواعها وأصبح لك انسان له مسجله الخاص يستعمله في التأليف وفي التلحين وجمع التراث وساعد على تسهيل مهمة الإذاعات بيت المسجل ليديها والمساهمة في التثقيف والتربية الموسيقيين وبعد ذلك جاء التلفزيون الذي أصبح الآن يربط الإنسان بالعالم بمجرد ضغطه على زر صغير يطلع ويستمتع الى فنون كل الناس ويبرز فنه وثقافته إليهم جميعا وسهل بذلك التلاقح بين الفنون واصبح هذا التطور سلاحا ذا حدين حسب استعماله فمنهم من يسخره لبث الفوضى وبث الإنتاج التافه الذي يقوي الإعتماد على الإيقاع الصخب ومنهم من يستعمله لبث الطرب المغذي للروح فيبعد الإنسان على النزعة الحيوانية ويزرع فيه حب الجمال والتآلف ويسهل عنده تطبيق قول الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام "لا يكون أحدكم مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" . واستمرت الفرق الموسيقية والغنائية والمجموعات الصوتية محافظة على تقاليد الإنسجام والحوار الروحي بين أفرادها للوصول الى المتعة الحقيقية وهي الطرب الذي يجعل المؤدين والجمهور العريض وحسبنا في ذلك ما نشاهده على الشاشة الصغيرة من حفلات فيها الإيجابي الممتاز وفيها الذي يعتمد على التهريج والتشويش .

ولمضخمت الصوت دور هام في توسيع عدد أفراد النظارة إذ بفضلها يصل الصوت إلى أبعد الحدود ومع هذه الإيجابية أصبحت لها دور سلبي للغاية حيث أصبحت أداة صخب في الحفلات والملاهي وهذا له تأثير خطير على الجهاز العصبي يكثر الأمراض النفسية وتصبح الحياة في البيوت على شفى الانفجار لأقل المشاكل . وقد قامت بعض البلدان باستصدار قوانين تفرض عدم تجاوز قوت الصوت في الحفلات الخاصة والعامة مقدارا معيناً من مقياس " الدسيبال " .

جاء بعد ذلك تطور التسجيل فأصبح يركز على العديد من القنوات فتسجل الفرقة ثم العازفون الممتازون ثم المجموعة ثم المغني أو المغنية ويقوم المهندس بالربط بينهم بإبراز القطعة وبذلك قوينا الشك لدى جميعهم وحرمانهم من متعة الانسجاو والحوار الروحي فيما بينهم وقتلنا فيهم المادرة والمقدرة على الإرتجال .فقد سجلت للعديد من المطربين والمطربات قصائد وأغان

ممتازة في حصة واحدة بدون انقطاع بعد إجراء التمارين طبعاً وإلى الآن لا أقبل هذا النوع من الإنتاج المجزأ الخال من كل روح وعاطفة .

وأخيراً جاء عامل آخر قال لهم حسب القولة التونسية "أسكت" إذ أصبحت الوسيلة التقنية تساهم في الإنتاج بنسبة تتراوح بين الخمسين والتسعين بالمائة فأصبح الإعتماد على قدرات هذه الأجهزة من حيث المقامات وعلى ماسجله اليابانيون بها من ايقاعات وهذا تسبب في تضيق مجال الإنتاج فقل عدد المقامات والايقاعات الممارسة وأصبحت القطع المنتجة متشابهة وضعف المنتج والمنتج ولو لم نتلاف الأمر بسرعة تحصل الكارثة ويضيع الفن ونصبح مثل الحيوانات نتحد في الصوت ونكره لتعبير عن أي شيء لا قدر الله .

وقيامنا بذكرى أمثال الشيخ خميس الترنا ر بما تفيق الفنانين والمسؤولين إلى هذا الاخطار وتبعث فيهم الحماس للنهوض بالإنتاج وتحرض المعاهد لإعطاء القدر الكافي من التراث الأصيل للتلاميذ لتعقيمهم عند الإتصال بالفنون والثقافات الأجنبية وليوخوا الأصالة عند قيامهم بالإبتكارات الحديثة المتطورة .

والله الموفق

د. صالح المهدي